على هامش مؤتمر المستشرقين

الاستشراق المعاصر من الأزمة إلى تجاوزها

معالم في طريق استشراق جديد

الدكتور شكري فيصل

مدخل :

لم أشك لحظة واحدة ، وأنا أمضي أشارك في مؤتمر المستشرقين التاسع والعشرين الذي عقد في باريس هذا العام « ١٦ – ٢٣ / ٨ / ٧٣ » أني سأواجه بعض الأزمات النفسية والفكرية .. ذلك أن الهالة المضيئة للاستشراق في نفسي كان يخالطها ، في مرات كثيرة ، شيء كثير من ضباب .. الوجه المشرق لم يكن وحده هو الذي يتبدى لي ، وانما كان يتبدى معه والى جانبه كذلك الوجهُ الآخر .. ان الأسماء الضخمة التي تلتمع في الذهن من أسماء هؤلاء الأعلام المستشرقين والجهد الكبير الذي بذلوه والنتائج الكبيرة التي حققوها والأثر العميق الذي خلفوه في الدراسات وفي الدارسين على السواء – كل

ذلك ما كان له أن يحجب عنا أن هذا الاستشراق لايصفو لهذه الأشياء ولا يَخلُص لها.. وان الخير الذي كان له أو كان منه لم يكن هذا الخير المطلق دائماً ، وانما كانت تخالطه ، في كثير من الأحيان ، مواقف أو غايات تكاد تفسده أو تفسد منه .

١ ـ الصورة

ومنذ البداية كان في ذهني مثلُ الذي في ذهن هذا الجيل الذي أنا منه والذي شهد الصراع المرير بين قوى الغرب المستعلي الحاقد وبين قوى الشرق المتطلع المتسامح .. ان البدايات التي انطلق منها الاستشراق لم تكن أبداً هذه البدايات الصافية ، ذلك لأنها كانت في منطلقاتها الاولى بعيدة عن أن تحقق شيئين أساسيين في كل حركة علمية : أولها ، الموضوعية في البحث ، والآخر ، الطهارة في الهدف .. فالهدف لم يكن – في الأغلب الاعم – نقياً ، والبحث – حتى حين كان يكون موضوعياً في منهجه – لم يكن موضوعياً في النطاق الذي وضع فيه ، ولا في الاطار الذي استثمر به .

ولهذا فان القدر الذي شهدنا ـ نحن هذا الجيل ـ من آثار هذا الاستشراق حتى في أضيق نطاق : في نطاق الدراسات اللغوية والادبية ، لم يكن مشجعاً لنا على شيء كثير من الاطمئنان .. لقد كنا ننظر الى آثار المستشرقين نظرة التقدير ، ولكن منشأ هذا التقدير لم يكن اطمئناننا اليها ولا اقتناعنا بها ، وانما كان مصدره أننا كنا مأخوذين بقدرتهم على البحث وفي تصدّيهم لقضايا ما كان لهم أن يتصدوا لها .. لعل تقديرنا كان للقوة التي وراء هذه الظواهر والابحاث ، ولعله كان يشبه تقدير جماهيرنا للقنبلة والبندقية والمدفع اذ تحس قوة هذه الاشياء وتخافها وتخشاها ، وكثيراً ما تصاب بها .

ومصدر هذا كله ان كثرة من أبحاث الاستشراق – دون ان نخوض في أشخاص المستشرقين انفسهم – كانت إلى إثارة الشكوك أقرب منها الى تثبيت الحقائق . . . وكانت الى جانب تخطي المعتقدات وتجاوز الموروث أدنى منها إلى جانب تجليته وتأكيده. .وكانت بتحقيق الغايات الخاصة ألصق منها بتحقيق الغايات العلمية الخالصة (١).

ومن المؤكد ان جيلنا هذا الذي فتح عينيه على هذه الابحاث والدراسات

---

(١) بودي أن ألفت نظر القارئ ، في هذا المجال ، الى سلسلة من المقالات التي يكتبها الأستاذ الدكتور كامل عياد في السنوات الاخيرة في مجلة مجمع اللغة العربية .

والمؤتمرات، واجه — منذ أخذ يحدق فيما كان يعرض عليه او يصل اليه — هذا الموقف العنيف المزدوج :

أحد وجهي هذا الموقف كان الدعوة النظرية الصادقة الى «العلمية» و «الموضوعية» والبعد عن الغايات في مجال الأبحاث التي لها جانبها التطبيقي .

والوجه الآخر لهذا الموقف كان الواقع العملي الماثل الذي يناقض العلمية والموضوعية ويخدم هـذه الغايات أو تلك ، من غايات الاستعمار أو التبشير ، في مجـال الأبحاث الانسانية : اللغوية والادبية والاجتماعية والتاريخية والفكرية .

لقد كان هناك دائماً هذا التباين المر بين هذين الوجهين . وعلى حين كان هنـاك هذا التأكيد « النظري » على البحث العلمي النقي ، كان هناك دائماً — أمام أعين هـذه الأجيال من بلاد المشرق كله — هـذا الانحراف عن الشرائط العلمية النقية في كل ما يتصل بدراسة شخصية هذا المشرق والخصائص التي كانت تؤلف هذه الشخصية ، او التي ينتظر ان يكون لها في استعادة هذه الشخصية سهم او نصيب .

٢ — المثال

اني من أجل ان ابدأ مـع القارىء من زاوية واحدة ـ وأنا أتابـع مسيرة هذا البحث ـ أحب ان اضرب مثلاً واحداً لعله ان يكون أشد الامثلة سطوعاً لانه أقربها الى أذهاننا وثقافتنا الادبية المشتركة .

هذا المثل هو نظرية أستاذنا الدكتور طه حسين عن صحة الشعر الجاهلي التي طرحها في كتابه في الشعر الجاهلي الذي آل أن يحمل بعد ذلك عنوانه الآخر : في الادب الجاهلي .

وما أعرف ان نظرية ما أو كتاباً أو بحثـاً في حياتنا الادبية المعاصرة أثار مثل الذي أثاره كتاب الدكتور طه. انه — بعيداً عن كل شيء آخر — استطاع ان يفجر في الدراسات الادبية آفاقاً جديدة ما كان للبحث الادبي ان يصل اليها في حينها لولاه .

وتلك على كل حال مسألة أخرى لانريد أن ننظر اليها الآن .. فالقنبلة قد تهدم أعمدة بناء ، وقـد تفجر ينبوع ماء. . . وقـد يكون من هدفها شيء ومن آثارها شيء آخر .

ولكن الذي يعنينا الآن ان النظرية انما قامت على الشك دون ان تنتهي الى اليقين . .

أصلت الشك وازدرعته ازدراعاً دون ان يكون لها - حين حاولت تصحيح بعض هذا الشعر - في قدرتها على استئصالة مثل الذي كان لها في قدرتها على ازدراعه .

وحين نلتفت نتقرى مصدر هذا الشك نجد ان الدكتور طه لم يكن هو صاحبه ، وانما أثاره قبله المستشرق مرجليوت في بحث له.. ثم تلقف الدكتور طه - وهو من هو - الكرة بذكاء نادر وعرض غني وثقافة عربية عميقة الجذور فأعطى البحث أصوله النظرية وأمثلته التطبيقية ، ومضى يقيم « الشك » في الشعر الجاهلي على انقاض من اليقين حين جعل لنظريته هذه المرتكزات الثلاثة :

أ - الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الجاهلية .

ب - الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية .

ج - الشعر الجاهلي لا يمثل اللهجات الجاهلية .

فماذا يبقى اذن من هذا الشعر اذا كان لا يمثل الحياة ولا اللغة ولا اللهجات وماذا يبقى له الا ان يكون ضرباً من الافتراء والتزوير .

ولكن الدكتور طه لم يفعل هذا فحسب وانما قدم له مرة وعقب عليه مرة :

أ - قدم له بهذا المقدمة النفسية البارعة التي حبب فيها بالشك ودعا اليه ورأى فيه أسلوب البحث العلمي وطريقة تقدمه .. وهون الامر على العرب والمسلمين جميعاً في ذلك حين قال لهم ان مثل هذا الشك ليس قاصراً على الأدب العربي وانما تناول قبل ذلك الآداب الأخرى، تناول الآداب اليونانية وتناول غيرها من آداب الامم ، فلا ضير اذن ان تبلغ الموجة الأدب العربي والثقافة العربية ... متناسياً في ذلك كله الفروق الضخمة بين الأمثلة التي يضربها وبين البناء العربي الذي كان يضرب فيه .

ب - والدكتور طه عقب على ذلك بعد ان هون أمره هذا التهوين وبعد ان وضع له مرتكزاته على هذا النحو ، عقب على ذلك بان هذا الشعر اذن منحول ومضى يعقد باباً ضخماً لأسباب هذا النحل ، وكان يراها هذه الخمسة : الدين والسياسة والقصص والشعوبية والرواة .. ليستوي له من ذلك هذه النظرية التي كان رآها كاملة أومتكاملة ،

عمل الدكتور طه إذن في جملته مرتبط بعمل مرجليوث منبثق منه ، وعمل مرجليوث صورة من صور أبحاث المستشرقين في منطلقاتها وأساليبها وغاياتها .. على حين انه ليس في عمل مرجليوث ولا في عمل الدكتور طه شيء جديد في النتائج اذا نحن تعمقنا النظر في تراثنا القديم .. والشك الذي طرحه مرجليوث ونفخ فيه الدكتور طه حسين لم يكن بدعاً من البدع ولا كشفاً من الكشف .. ويكفي ان نقرأ مقدمة ابن سلام لكتابه « طبقات فحول الشعراء » حتى نرى أن الرجل قد وقع منذ ما يزيد على الف ومائة عام على الموضوع كله .. ولكنه لم يستخدمه للتشكيك قدر ما جعل منه صورة بحث نزيه : عرض للشك في هذا الشعر الذي وصلنا ، ثم عرض أسبابه — وهي تلك التي عرضها الدكتور طه بأسلوبه المطول الذكي البارع ، ثم انتهى الى ان أهل العلم متفقون على أن بعض هذا الشعر صحيح لا شك في صحته ، وبعضه موضوع لاشك في وضعه ، وبعض ثالث يقع بين بين ، وهذا ما اختلفت فيه العلماء .

نحن اذن امام قضية من أعمق قضايانا الأدبية تتصل بأسس الثقافة العربية كلها، علماؤنا القدامى عرضوا لها ووقفوا عندكل وجه منها، وانتهوا — في بحث علمي هادىء — الى ما يجب ان ينتهوا اليه .

ولكن الاستشراق حين تناول هذا الموضوع تناوله على نحو آخر .. كان واضحاً من معاودة البحث دون جديد من الأدلة ، ومن طريقة التناول ، أن الهدف انما هو زعزعة الثقة بهذا التراث .. وانكار هذا الشعر الذي يمثل مادته الأولى ، ونسف كل هذه الدراسات التي قامت على اساس من الثقة بهذا الشعر .. وما الذي يبقى من اللغة ومن التفسير ومن التراث كله اذا كان هذا شأن الشعر الجاهلي القديم .

ولندع ما كان من أمر استاذنا الدكتور طه .. سواء أكان أخذ بذلك أم كان أخذ به ، فتلك قضية أخرى .. وانما الذي يهمنا الآن أن مثلاً واحداً من ابحاث الاستشراق طرح على هذا النحو الخطير ، وان أصحابه الذين طرحوه كانوا يعرفون ان القدامى عرفوا ذلك أدق معرفة ، وناقشوه أسلم نقاش ، وانتهوا منه الى أصح ما ينتهي إليه بحث .. ومع ذلك فقد عاودوا النظر على نحو لا شك في انه — لو قدر له ان يسود — لكان معناه ان يخرج الباحثون العرب من ثقافتهم، ومن جلودهم أيضاً. هذا المثل الذي

أضربه إنما أختاره لأنه يتصل بهذه الثقافة الأدبية التي يشارك فيها الكثرة الغالبة منا ، ولأنه هـذا المثل الدائم الشائع ، ولأنه يمكن ان يكون طريقاً لتصور بعض أعمال الاستشراق ولتصوير آثارها..إنه يمكن أن يكون تجسيداً لهذه الازمات النفسية والفكرية التي تجتاحنا من جراء مثل هذه الابحاث الهـادفة .. ويكفي في تصور آثارها أنهـا تجاوزت جمهرة المثقفين الى الصفوة منهم .. واذا كان بحث مرجليوث أعطى مثل هذه « الثار » عند الدكتور طه ، فمن الذي يقدر بعد ذلك ما اذا كان من « ثمار » بحث الدكتور طه في نفوس هذه الاجيال كلها التي قرأته وتعاقبت على قراءته .

لعلي أكون من اقدر الناس على تصور هذا الأثر وتصوير هـذه النتائج .. اننا خلال نصف قرن تقريباً ، ظللنا نناقش في الصحف والمجلات ، وفي المعاهد والمدارس ، نظرية ماكان لها أن تطرح على هذا النحو ولا أن تحتل هذا الفراغ .. لقد استنفدنا من الوقت والجهد ما لا حصر له . ولو كان الوقت والجهد وحدهما لهـان .. ولكنه ماوراء الوقت والجهد من ضياع وتشتت .. اني اعرف ، خلال التدريس ، آلافاً من الشباب مروا بي ، كلهم كان يقرأ هذا البحث . فينقاد له او يتأثر به .. اسلوب الدكتور طـه وبيانه الرائع سبب من اسباب التأثير.. والفراغ الذهني والفكري والعقائدي سبب آخر.. ولكن موجة التشكيك اقدر الموجات على النفاذ .. ولذلك كان من اسوأ ماخلفت النظرية هذا الاجتراء على المواجهة من غير سلاح .. وهكذا كان مايكفي شاباً في بداية دراساته أن يجلس في ناد وان يتهم الشعر الجاهلي كله وأن ينكره وهو يشرب كأساً من الشاي او يستمع الى اغنية منبعثة من مذياع .. دون أن يقدر أبعاد مايتحدث عنه او يقرره..

ان الموجات التي اثارتها هذه النظرية ، والخصومات التي ولدتهـا ، والاضطراب الفكري الذي خلفته ، والشك الذي اسلمت اليه اجيالاً من الشباب لم تكن عندهم القـدرة على تجاوز الشك الى الضفة الاخرى ، الى اليقين .. كل ذلك يجعل من هذا المثل طريقاً الى هذا الذي اتحدث عنه واشير اليه«١» .

---

(١) ومع ذلك فرب ضارة نافعة .. ذلك أن آراء الدكتور طه خلفت — في مجـالات البحث الرصين — النقيض .. واتاحت الشكوك فرصاً للتحقيق والتثبت .. ولكن بعد حين .

٣ ـ الدراسة

ولست اجادل في ان الاستشراق لم يكن كله كذلك . اني حين انظر مثلاً فيما قاد اليه حل الكتابة الهيروغليفية اثر اكتشاف حجر رشيد وحل رموزه على يد شامبوليون.. وحين افكر في جهود هذه العقول الكبيرة التي اندفعت تدرس هذه الحضارات القديمة تحييها ، وهذه اللغات القديمة تعترف بها .. وحين أنظر – على سبيل المثال – فيما كان من عملهم في نشر التراث العربي وفي تقديمه الينا .. حين افعل ذلك لا أشعر بالخجل من قصورنا – وذلك موقف آخر على كل حال – .. وانما اواجه هذه الأزمة الوجدانية حقاً .. أزمة لا يحسها الشرقي بل اقدر ان بعض المستشرقين انفسهم يحسونها كذلك .. فأين نقف من هذا الاستشراق ؟.. اذا كانت هذه مواقفه السليمة فكيف نفسر مواقفه الاخرى تلك ؟.. هل من سبيل الى عملية تصفية نعاود فيها النظر الى هذه الظاهرة البارزة ، ظاهرة الاستشراق ، لتكون اكثر تلاؤماً مع اصحابها ، مع هذه الشعوب ، وانطباقاً على غاياتها ؟..

في محاولة للاجابة عن ذلك ، في محاولة للتخلص من هذه الأزمة النفسية ووضع القضية في موضعها السليم ، اجدني مدفوعاً الى أن اقول ان العمل الاستشراقي يجب أن ينظر اليه من هذه الوجهات الثلاث :

أ ـ البدايات التي انطلق منها

ب ـ الغايات التي يصل اليها

ج ـ الطريق بين البدايات والغايات

أ ـ البدايات

فأما عن البدايات التي انطلق منها فما من شك في أنها هي هي بدايات السيطرة الغربية .. هناك هذا الاشتراك بين البدايات الاستعمارية « بما يخالطها من دين وسياسة وسيطرة وحقد وتعريض واقتباس ونقل » وبين البدايات الاستشراقية .. تاريخ الاستشراق لاينبجس من نبع المعرفة الخالصة الصافية ، وانما ترافق هذا الاستشراق

ـ او توازي ـ مع السيطرة . . كان لا بد من معرفة هذه الاقوام بغية التمكن منها .. وكان لا بد من معرفة كل شيء عنها .. من معرفة لهجاتها ولغاتها ، ومن معرفة ديانتها ومعتقداتها ... وكان لابد من معرفة ثقافتها وعلومها ومعارفها.. كان لا بد من دراسة ارضها وتاريخها وجغرافيتها ، وكان لا بد كذلك من دراسة مجتمعها وطبقاتها وناسها وثرواتها .. كانت كل معرفة في ذلك معرفة واجبة لا غنى عنها .. لاغنى عنها في السيطرة او في الطريق الى السيطرة ، او تأكيد هذه السيطرة .

ومن هنا اقترن مابين الاستشراق والاستعلاء . الاستشراق ايضاً جاءنا من عل، جاءنا كذلك غازياً .. بعضه جاء مع مدافع نابليون في القاهرة ، وحملات الانجليز في الهند واحقاد الصليبية في شمال افريقية .. وهذا دون أن اتطاول للحديث عن الشرق البعيد ، عن الصين وجنوب شرقي آسيا .. ومن هنا ايضاً كان اول الوهن الذي مازج الاستشراق وظل خيطاً ثابتاً ـ وهذه اضعف الصور ـ يداخل نسيجه كله على نحو أو آخر ، وبمقدار او بمقدار .

ب ـ الغايات

واما عن الغايات التي ينتهي اليها.. فان من المؤكد أن كل مايصل اليه الاستشراق من نتائج البحث انما ينصب في دوائر وزارات الخارجية او وزارات المستعمرات او مؤسسات التبشير .

ودون أن نفكر فيما اذا كانت هذه الوزارات تخلقه احياناً او تخلق أبحاثه ، او توجه هذه الابحاث او تحمي اصحابها او تنفق عليها او .. او .. دون ان نفكر في ذلك فان الشيء الذي نتفق عليه جميعاً، سواء كنا شرقيين او مستشرقين ـ أن هذه الوزارات والدوائر تغتصب هذه النتائج او تصل اليها، وانها تضعها موضع الاستثمار ، وأنها تفيد منها الى ابعد الحدود .. انها تؤلف في اعمالها التبشيرية والاستعمارية المرتكز الفكري او المادة العلمية او ـ ان شئت الدقة ـ تحاول أن تجعل من ذلك مرتكزاً فكرياً ومادة علمية .

جـ ـ الطريق بين البدايات والغايات

وأما ما بين البدايات والغـايات فذلك هو الطريق الطـويل .. ما أطول هذا الطريق وما اكثر الذين سقطوا ضحايا له .. ما أكثر ما أثير فيـه من قضايا وما اكثر ما انتهت اليه هذه القضايا من حقائق أو شكوك .. ما اكثر الذين سلكوه من العلماء ، ولكن ما اكثر ما كان بعض هؤلاء العلماء الانقياء ضحايا للذين امتصوا منهم أبحاثهم ، وما اكثر ما كان منهؤلاء من يرتدي وراء ثوبه العلمي ثوب الجندي أو المبشر أو رجل المخابرات .ماأضخم ما نشرمنكتب وما تحقق من كشوف ، ولكن ما أسوأ ما استثمرت فيه هذه الكتب والكشوف احياناً وما أحسن ما استثمرت فيه أحياناً اخرى .

ان الطريق بين هذه البدايات والغايات شاق وخطر في أجزاء منه ، وجميل رائع في اجزاء اخرى .. بعضه على حافة الهاوية وبعضهفي اكناف الثقة .. بعضه صفاء صاف وبعضه كَدَرٌ كدِر..

في هذا الطريق تقابل العالم الذي يجلله وقار المعرفة وترتسم هموم العلم والثقافة والفكر على جبينه تتحكم في أسرة خديه وترسم هي هذه الأسرة والخيوط .. كما تقابل الجندي الذي يريد أن يصنع لحربته الدامية غلافاً من حرير ..

في هذا الطريق تلقى الذين يموتون وهم يقلبون صفحات الكتب بحثاً عن حقيقة، والذين يبحثون عن أشباه الحقائق يميتون بها الشعوب .

انك ترى في هذا الفاصل بين البدايات والنهايات أولئك الذين يتعرضون لأعظم الاخطار ويواجهون أصعب المواقف ، ويتنقلون في الصحارى والبوادي ، يحققون كلمة أو ينبشون أرضاً .. واولئك الذين يعملون ولكن ليركزوا راية أو يبعثوا خلافـاً أو يثيروا عصبية .

ان الصور الحلوة المشرقة والصور الـسوداء ، على السواء ، هي في هذا الطريق .. فيـه الباحثون عن المعرفة والباحثون عن الفتنـة .. الذين يحبون الشعوب والذين يكرهونها .. الذين يؤمنون بالانسان وأن حركة الانسانية دورة وان التراث الانساني مشترك ينضـاف بعضه الى بعض ، واولئك الذين يؤمنون بالانسان الابيض وحـده وينحون التراث الانساني الواهم وحدها .

أما أي الفريقين اكثر عدداً ونصراً فذلك مالا سبيل الى الحديث فيه ولا حاجة

كذلك .. فنحن انما نريد أن نصل من هذا كله الى اجتلاء الصورة الماثلة للاستشراق بغية الاسهام في اخراجها عن بعض محاورها التي كانت تسير منها الى محاورها الجديدة التي لابد منها مع تطور الانسانية بالناس .

٤ — نحو استشراق جديد

الاستشراق اذن متهم في بداياته ، مستشمر في النهايات التي يصل اليها ، مشوب بالكثير فيما يصل بين هذه البدايات والنهايات ..

فهل يمكن أن يبقى على هذا النحو ؟.. هل في مصلحة العلماء المخلصين الذين يعملون فيه أن تظل حوله هذه التساؤلات ؟.. وهل في مصلحة الشعوب التي يتناولها هذا الاستشراق ، وفي مصلحة العلماء الناشئين في هذه الشعوب أن يظل الاستشراق في هذه الدوائر الضيقة التي يعمل فيها ؟

أليس في آفاق الحياة الجديدة التي تندفع اليها الانسانية ما يدفع بحركة الاستشراق الى أن تقف موقفاً جديداً ، تحاول أن تنفض عنها ما علق بها وأن تتلاقى مع النزعات الانسانية الجديدة وأن تتكامل معها .. حتى لاتكون دائماً في موضع العبء على الشعوب التي تهتم بها ، والعبء على الضمير الانساني المتفتح في هذه الشعوب ؟

اني مؤمن أنه من الخير لكل هذه الأطراف، من الخير المشترك للناس أو للانسانية، وللفكر والثقافة ، ومن الخير المشترك للشعوب المتقدمة والشعوب النامية ، لأولئك الذين يعملون من ابناء البلاد والذين يعملون من المستشرقين — أن تنظر حركة الاستشراق الى ذاتها ، أن تعاود النظر الى مواقعها ومواقفها واصحابها وغاياتها وميادين عملها .. أن تمارس — بشكل دقيق ومنصف — نوعاً من النقد الذاتي يكفل لها أن تنزع عنها بعض الأردية المشوهة التي لازمتها .

اني لااقول هذا لاتزيداً ولا تطرفاً .. فأنا مطمئن الى أني بعيد عن التزيد والتطرف، ولو كان عندي شيء من ذلك لكان موقفي الى الرفض المطلق .. ولكني اقوله لأن — في حدود ما أعرفه من أرضي وتراثي وصلتي بهذا الجيل الذي يأخذ طريقه الى الحياة في جامعاتنا ومدارسنا — في حدود كل ذلك التمنى من أجل أن يكون الاستشراق كله تعاوناً لا تعالياً ، ومن اجل أن يكون صفاء لا يخالطه كدر لا أن يكون كدراً يعيشه بعض

الصفاء ، من اجل ان تظل جهود العلماء لمصلحة العلم لا لمصلحة دوائر الخارجية ومؤسسات التبشير ، من اجل ان تظل للعلماء الانقياء الذين ينذرون حياتهم ، صورتهم التي تحملنا على الانحناء لهم في كل موقف .. من اجل ذلك كله احب ان تكون حركة الاستشراق في الموضع السليم في اذهان الشرقيين وفي قلوبهم .

فما هي بعض المبادىء والملامح في هذا الوضع السليم الذي نتمناه .

ح ــ المبدأ الاول : الخروج من العزلة وفي اللغة بخاصة

في البداية يبدو أن الاستشراق يحسن أن يتخلى عن هذه العزلة التي يعيش فيها ..

قد يقع هذا الكلام موضع استغراب ، وقد يتساءل بعض كيف يعيش الاستشراق في عزلة ؟.. وليس الجواب عسيراً امام الذين يتأملون هذه الظاهرة ، ان جهود الكثرة من المستشرقين لا يهمها أن تكون على صلة تفاعل مع الثقافات ومع الشعوب التي تعنى بها .. انها تضع بحوثها ونتائج هذه البحوث هذا الوضع الضيق المحدود بين المستشرقين انفسهم او بينهم وبين قلة قليلة من ابناء الشعوب والثقافات التي يعنون بها .

وهل يحتاج الامر الى أن أسرد الامثلة من الاستشراق المستعرب ؟

من الذي يعرف بدقة وشمول ، من مثقفي الوطن العربي كله ماذا يبحث المستشرقون وماذا يكتبون ؟ من الذي يرصد نتائج بحوثهم وتطورها ؟.. من الذي يتابع ذلك ويتفهمه ويقف عليه ويغني جوانبه او يفيد منها ؟.. هل في كل دوائرنا العربية من يحصي ويتابع كل مايكتب عنا وعن ثقافتنا .. وفي أيسر الحدود وابسطها هل نعرف كل ماكتب عن اللهجات العربية وما الف فيها ؟. ماكتب عن اللغة العربية ؟.. ماكتب ويكتب عن الادب العربي .. هل هنالك مؤسسة من مؤسسات الجامعات الكثيرة او دائرة بحث تعرف مسار ابحاث الاستشراق؟.. اليس هنالك آلاف من المقالات ، لانكاد نحصي اسماءها حتى اذا جئنا نحتفل بذكرى عالم او مفكر وجدنا أننا نبادر في تلك اللحظة نفتش عن المقالات التي كتبت عنه والابحاث التي دارت حوله ؟

ولنترك التراث ..ولنسأل هل فينا من يعرف ماذا يكتب عن حاضر الوطن العربي : عن لغته اليومية المعاصرة ، عن تطور طبقاته ، عن تقييم أدبه ، عن رصد اتجاهاته !

مؤكد أنني لا أعدم من يقول : ولكن هذا واجبنا نحن .. وان علينا ان نعرف ما يكتب عنا وما يؤلف فينا .

قد يكون ذلك .. ولكن للأمر وجوهه الأخرى .. فاذا كان هؤلاء الباحثون إنما يبحثون في تاريخ الشرق وثقافته وعلومه وحركاته المعاصرة فلماذا لايكتبون ذلك بلغة الثقافة التي يُعنَون بها والشعوب التي يختصون بدراستها .

لماذا لا تكتب الابحاث عن الفارسية بالفارسية ، وعن العربية بالعربية ؟.. واذا كنت أنا مستشرقاً مختصاً بالدراسات العربية مثلاً فكيف اتحدث عنها وأكتب وأناقش بغير لغتها ؟ .. أليست اللغة إطار الثقافة وجوهرها ؟.

ألا تبدو المشاركة اللغوية هنا اداة ضرورية ؟.. ألا يبدو التحول عن لغة هذه الشعوب الى اللغات الفرنسية او الانجليزية او الروسية استمراراً لحلقات الاستعلاء ومتابعة لها ؟.

ألا يخالف هذا أبسط الأصول في البحث العلمي ؟.. البحث العلمي يقوم على أساس المشاركة فيه .. وأنهم ليجترحون كل الأسباب ويتخذون كل الوسائل من أجل تعميم البحث العلمي بغية تحقيق اكبر قدر من المشاركة فيه .. فلماذا تخرج أبحاث الاستشراق عن ذلك إلى النقيض ؟. لماذا تضيّق حلقاتها ؟..لماذا تقتصرعلى المستشرقين الطارئين عليها بعيداً عن أصحابها الأصليين ؟

لقد ألفنا أن يكون الاستشراق بلغة المستشرقين .. ربما كان ذلك مقبولاً في الفترات الأولى من هذه القرون التي كانت فيها الشعوب الشرقية بعيدة عن البحث العلمي أو عن المشاركة فيه ... أما الآن وبعد أن تقدمت الحياة الفكرية وبعد أن نشأت الجامعات وبعد ان اتسع نطاق الثقافة فلماذا لا تكون هذه المشاركة ؟.. لماذا يُقدَّم الينا الاستشراق على أنه بضاعة ننظر اليها لا على أنه بضاعة نتعامل معها ؟.. لماذا لاتقدم الينا — لمصلحة البحث العلمي والمشاركة فيه وتعميقه وتحقيق نتائجه — ابحاث الثقافة العربية ، ومادتها وجوهرها اللغة العربية ، باللغة العربية ؟ .

وحين يتحدث باحث في مؤتمر المستشرقين مثلاً عن التعليم الديني في تونس فلماذا يتحدث؟.ولماذا يكون بحثه في لغة اجنبية،على حين ان مصادره كلهامصادر عربية وموطن بحثه موطن عربي ؟.. من الذي يستفيد من هذا البحث ومن حقائقه ؟. ومن الذي يناقشها ومن هو صاحب الحق في ذلك ؟.

ابحاث المستشرقين عند ما تكون ابحاثا موضوعية نقية ، مُلكٌ للشعوب التي تكتب لها ، فيجب أذن أن تكتب بلغة هذه الشعوب .

وليس هذا تعصباً .. ولكن الذي فيه الاستشراق قد يكون هو التعصب .. ان هذا الذي نبدأ ندعو له هو الانفتاح الكامل .. انه هو معنى ان يخرج الاستشراق من عزلته .. ولا أدري لماذا أصر على أن هذا المبدأ اول المبادىء التي يحسن أن تستقطب حركة الاستشراق .

إنه ، في نظري ، لايكفي أن يفتح الاستشراق ما بينه وبين ثقافة ما .. ولكنه يجب أن يفتح ما بينه وبين أصحاب هذه الثقافة انفسهم .. ان هذا هو الذي يضمن غايتين كبيرتين .

أولى هاتين الغايتين انه — بعد التطور الثقافي لدى الشعوب الشرقية — يحقق قدراً من التفاعل الثقافي هو الذي يعطي ابحاث الاستشراق قيمتها الحقيقية .

والثانية من هاتين الغايتين أنه يتيح للبحث العلمي أن يتحرك في بيئته ولغته ومواصفاته ، بعيداً عن الحذر والريبة والخوف والشكوك .

وماذا يتطلب العلماء المخلصون لنتائج ابحاثهم إلاّ هاتين الغايتين ؟

٦ - المبدا الثاني : المشاركة

المبدأ الثاني الذي يبدو أنه يجب أن يقود حركة الاستشراق أن يكون العمل العلمي في نطاق الدراسات والابحاث والتحريات عملاً مشتركاً تقوم عليه فرق بحث مشتركة من المستشرقين ومن الشرقيين على السواء .

إنه من نافلة القول أن يدلل الانسان على هذا في هذه الفترة من تاريخ البشرية .. ومثل هذه الدعوة ليست نوعاً من تقاسم الأرباح والأسهم في الشركات .. ليست ترضية ولا دغدغة للغرور ، ولا صمام أمان لاستلاب الشعوب توثبها نحو الحياة .. انها ليست شيئاً من ذلك كما قد يظن .. ولكنها — على النقيض — أمر في مصلحة البحث العلمي نفسه وضرورة من ضروراته .

وتفسير ذلك أن ابحاث الاستشراق تتناول بالدرجة الأولى — ولعلها تتناول على سبيل الحصر — جانب الدراسات الانسانية : اللغة والتاريخ والدين .. كانت تتناول ذلك في الماضي وهي تتناول ذلك في الحاضر أيضاً .

والنفاذ الى الدراسات الانسانية سبيله الأولى اللغة ، وسبيله الأخرى بعد ذلك تعمق روح المجتمع نفسه .. والدراسات النفسية المحدثة تشير الى ان روح اللغة وروح المجتمع لايتملكه إلا أصحابه .. وإذن فان مصلحة البحث ومن ضمان غاياته ان يكون الذين يعملون فيه ويجوسون خلاله من صحاب هـذه اللغة وهذا المجتمع .. وبخاصة إذا استطاعوا أن يجمعوا بين سلامة المنهج وبين تعمق الروح .. فاذا كانت حركة الاستشراق قادرة على المنهج بحكم تجارب قرون من العمل العلمي فانها لاتملك القدرة ذاتها على تعمق الروح والنفاذ في شعابها .. ولهذا يبدو من الخير لو أن هنالك هذا التعاون بين الباحثين المشرقيين وبين الباحثين من المستشرقين . إن ذلك يؤدي الى تجاوز الصعوبات من نحو والى اختصار الزمن من نحو آخر والى تسريع حركة البحث في طريقها المستقيم من نحو ثالث .

ويكفي أن نلاحظ في ذلك مايضطر اليه بعض المستشرقين أحياناً من جهد في دراسة النصوص بلغاتها الأصيلة وما ينفقون من وقت،وما يجانبون فيه أحياناً الصواب.. أفلا يكون من الخير إذن لو ان حركة الاستشراق أخذت نفسها بهذا النوع من التعاون واعتبرت المشاركة مبدءاً تقتضيه مصلحة البحث وتدفع اليه حركة التطور في هـذه الشعوب ، وتسعف عليه أن هذه الدراسات هي دراسات تختص بهذه الشعوب نفسها ؟!

٧ ــ المبدأ الثالث : التجرد والتصفية

والمبدأ الثالث الذي يبدو أن حركة الاستشراق جديرة أن تأخذ بـه هو تصفية عملها العلمي من كل ماقد يشوبه من غايات .. أعني أن تحرص على أن تخلص نتائج عملها العلمي للعلم ذاته لا لأغراض أخرى ، وأن تباعد مابينها وبـين استثمار ذلك في النطاق الاقتصادي أو الاجتماعي أو الديني .

وهل من حاجة الى أن يتحدث الانسان هنا عن مدى ما كان من استثمار المؤسسات الاستعمارية والاقتصادية والفكرية والدينية لأبحاث الاستشراق ؟.. ألم يكن هـذا الاستثمار هو الذي أساء فهم الاستشراق وتقبله في البلاد الشرقية ؟.

ان هذا الامر يقتضي جداً من الصفاء ومن التجرد لا بد لحركة الاستشراق من أن تفرضه على العاملين فيها جميعاً .. ذلك أنه لايزال كثير من ابحاث الاستشراق مسوقاً في هذه الطرق المنحرفة .. ان عناوين بعض الموضوعات التي قدمت الى المؤتمر الاخير

تكشف عن ان بعض الاتجاهات القديمة التي كانت تتحكم احياناً في حركة الاستشراق لاتزال تتحكم فيه .. قد تكون خلعت بعض اثوابها ولكنها لم تغير الروح التي تصدر عنها .

انه لكي يكون العمل العلمي مثمراً يجب أن يكون متقبلا .. ولكي يكون متقبلا يجب أن يكون صافياً خالصاً للعلم نفسه لا تخالطه الغايات الاخرى أياً كانت .. يجب أن يظل هدف حركة الاستشراق أن تتحرك في نطاق بناء عالم واحد لا سيطرة فيه ولا تمكين لهذه السيطرة أياً كانت .

وإلا ، ان لم يتحقق هذا فان حركة الاستشراق لاتبلغ مايطلب منها في عالم اليوم وفي عالم الغد .. وتظل نظرات الريبة قائمة من حولها .. واذا كان هذا التجرد هو اول صفات البحث العلمي او اول صفات العالم فانه يجب أن يكون هنا ميدان تطبيقه حتى لايكون في نفس الشرقي هذا الانفصام بين مايسمعه وبين ما يراه .

ولا يمكن ان يظل هذا المبدأ في نطاق المبادىء النظرية .. بل يجب ان تكون له مؤيداته التي تكفل تطبيقه .. ان حركة الاستشراق نفسها تستطيع أن تجعل من بعضها رقيباً على بعض .. ذلك أن تبعد عن ساحتها اولئك الذين لايستجيبون الى هذا المبدأ الاصيل فيها . وحين تفعل ذلك - على شكل تنظمه التقاليد - فانها تضمن سلامة اولئك المستشرقين الذين يعملون بعيداً عن التعصب ، بعيداً عن تسخير المعرفة العلمية لأغراض غير علمية .

* * *

خاتمـــة

وبعدُ فان جوانب من تاريخ الاستشراق وجوانب من سيرة بعض المستشرقين كانت تقود الاستشراق إلى أزمته .. ولكن تطور الحياة بالناس والمجتمعات والشعوب تقود هذا الاستشراق إلى عمق أزمته .. ومن أجل تجاوز هذه الأزمة لابد من ان تضع حركة الاستشراق ذاتها في مسار آخر .

إن المبادىء الثلاثة التي تحدثت عنها هي بعض المبادىء التي يجب ان تحكم حركة هذا المسار .. وإلا .. ظل الاستشراق زينة وترفا في نظر بعض ، وستاراً في نظر بعض آخر .. وإلا كذلك ، ظل الاستشراق في نطاق تطور حركة الشعوب وفي نطاق المسلمات الاجتماعية والنفسية الجديدة ، بعيداً عن أن يحتل مكانته ، وأن ينهض بالعبء العلمي الذي يجب ان ينهض به .

ان الاستشراق يجب أن يخرج عن هـذا الخط الذي وضعته فيه ظروف معينة : خط الاستعلاء على الشعوب، وخطاستثار التعرف اليها ، وخط العزلة ما بينه وبينها.. إلى خطوط جديدة تجعل منه أفقاً طلقاً صافياً لدراسات علمية خصبة .

إن هذا واجب حركة الاستشراق .. ولقـد عرفت كثيرين من المستشرقين الذين يتطلعون الى ذلك ، وينفرون أشد النفور ممـا علق بالاستشراق .. ولكن ماذا اذا لم تستطع الحركة أن تحقق ذلك ..

حينذاك يبدو أنه لا بد من لقاء على نحو جديد بـين الذين يحبون العلم خالصاً مخلصاً وبين الذين يأنفون من السيطرة أياً كانت أشكالها .

ولكن لماذا نفترض ذلك وفي حركة الاستشراق كثيرون يحركهم حب الحقيقـة وحب العلم وحب الشرق .